الغربة
بين النقد والأثر

انسي الحاج

١

ترافق الحركات المعاصرة في الادب العربي موجة من التساؤل عن مكان النقد ومن المطالبة به في الحاح . ما من شاعر الا المح الى غياب النقد ، وما من ناقد الا شكا وحشة الطريق ، وما من قارىء الا حمّل النقد الغائب تبعة الفقر والضحالة ومسؤولية تشابك النزعات وفوضى القيم وتضعضع المقاييس . نحن نعلم ان التشابك والتضعضع والفوضى اعمق علة وابعد من ان نرتجل النقد كسبب لها . فما تخلف النقد وتلعثمه الا نتيجة اخرى لتزعزع الارض بالمقاييس والمفاهيم والاحكام التي درج عليها الانسان فكرا وفنا ومسلكا في زمن هو غير هذا الزمن وفي عالم انقطع بينه وبين عالمنا اكثر من سبب اساسي .

غير ان الانتباه السائد الى فراغ النقد والشعور بالحاجة اليه هما وليدا ثقة قديمة به ، وان تكن الثقة به لم تخل يوما من التردد والتخوف ، ومن الاحساس نحوه بالكراهية والاحتقار عند بعض الخلاقين ، حتى لنتساءل لماذا اذا تلكأ النقد وجه اليه اللوم وحمّل المسؤوليات ما دام حضوره لا يرضي احدا ؟ لكن النفور بين الخالق والناقد يبدو من طبيعة الاشياء ، ولا يبدو من الحكمة ان نتوسع في هذه الحالة الى حد الحكم « بالغاء » اي من طرفي النفور . وما نفور الخلاق من الناقد الا من وحي « حضور » الناقد ، اما غياب الناقد فانه يقذف الخالق في جحيم انعدام الصدى الواعي ، هذا الصدى الذي لا بد للعمل الفني من سماعه ، وان تردد آلاما وجراحا في احشائه .

لكنني لست في صدد الكتابة عن فضائل النقد ، لانني اعتقد ان فضائله لم يبقَ من مخبوئها الشيء الكثير ؛ فالى جانب ما افاض به الكتّاب من نقاد وسواهم ، لعل في سؤال الخلاقين المتواصل وفي قلقهم من تأخر النقد وتغيبه شهادة صادقة لاهمية النقد وخطورة شأنه .

انني ابحث الآن عن بعض مساوىء هذا الفن .

٢

هناك نوعان غالبان في النقد – وانا اعترف ان هذا التصنيف مفتعل وشكلي ، لكنه تبسيطي – : واحدهما حكمي ، يقيس الاثر بقواعد ثابتة وبالنظر الى قياسات جاهزة (حق النقد الانطباعي الذي يقول : « يعجبني ، لا يعجبني ، يُقرأ ، لا يُقرأ » ، لا يسلم من التأثر بالقواعد الثابتة والقياسات الجاهزة) . وثانيهما تقييمي ، يبحث في معنى الاثر ومدلوله ، ويحاول ان يستخرج منه قيمته ، مشددا على فضائله اكثر من تشديده على نواقصه . النوع الثاني هو المسيطر اليوم ، ولعل ابرزه ما تفرع الى اضاءة الحوار بين الفنان ووجدانه – هذا الحوار الذي اتخذ شكلا له في عمل الفنان – وتخلى عن ركوب مركب اصدار الاحكام ، واقفا عند حد ما دعا اليه بندتو كروتشه ، اي القبول بالاثر ومحبته .

(وربما امكن الربط ، مهما بدا ذلك تناقضيا ، بين دعوة كروتشه وصرخة فكتور هوغو بنقاد مسرحه : «ليس لكم ان تناقضوا الموضوع : السؤال هو ،هل هذا العمل جيد ام لا ؟ » وردّ اندريه برتون على الذين ذهبوا يفتشون في شعر سان بول رو عما لم يقله : «ما اراد سان بول رو ان يقوله ، قاله» . ربما امكن القول ان نداء الفنان الى الناقد ، منذ بداية انهيار الكلاسيكية ونقد القواعد الثابتة ، هو ان يستقبل الاثر الفني بنية القبول والحب ، ومن ثم فليتفهمه وليعاود اختبار تجربته ،الجمالية او الاخلاقية، وليكتشف فيه ما يميزه ، اي فليتكشف فيه جوهر حضوره ، بحدود شهادة الاثر ذاتها واشعاعات هذه الشهادة ، لا تحت تأثير نموذج سابق او بالقياس الى مذهب براني) .

احد عيوب النقد الحكمي – وهو ما اسقطه في عين نفسه وما عجل في دهورته – انه سجل من الاخطاء وغمط الحقوق اكثر مما سجل من الصواب والعدل . وقد نكب نكبة في القرن التاسع عشر حين تنكر لبلزاك (وقد حاكمه بقانون ضاقت بالزمن المتغير بنوده القاصرة) ، واستخف ببودلير (وقد رآه بعيني راسين) ، ولم يكتشف رمبو ؛ وكان فضلا عن ذلك قد اخطأ فهم الرومنطيقية لانه نظر اليها بمنظار القرن السابع عشر ، ثم تولى عهد ما بعد الرومنطيقية اخطاء الفهم حين اعرض عن الرمزية اعراض الوازن بميزان ما سبق ، ثم تولى الرمزيون القياس الخاطىء بالنسبة للسوريالية ، الخ ...

ان عهد النقد الحكمي قد تولى بشكل عام ولم يعد موثوقا به؛لكن الى اي مدى استفاد النقد التقييمي من هزيمة سلفه ومن اخطائه ؟ وبالمعنى الذي تدور فيه هذه الكلمة ، هل تفادى النقد التقييمي المعاصر خطأ الحكم من خارج واستنادا الى قواعد ثابتة ومقاييس جاهزة ، بقليل او كثير ؟

كل اثر يتطلب تقييما ، لكن ما هو التقييم؟الارجح انه البحث عن قيم الاثر وابرازها، عن طريق منفتحة ، محبة ، ومنطلقة ، لاعادة اختبار لا التجارب التي يحاول الاثر ان يجسدها فحسب ، بل تجارب « تأليف » الاثر بالذات . وما هي النتيجة التي ننتظرها من ناقد القيمة ؟ ان يعدل مع المؤلف حيث لم يستطع المؤلف ، وحيث لا يستطيع كل خلاق ، ان يعدل مع نفسه : ان يسلط الضوء على ما في الاثر ، مكتشفاً فيه لا وضعه الراهن فحسب بل،على الاخص،امكاناته «الحاضرة». (ارسل كاتب لبناني باللغة الفرنسية مخطوطة قصة لدار نشر فرنسية ، وكان جواب القارىء المكلف في الدار : « ارسل لنا شعرك ؛ رأينا في قصتك شاعرا يمتاز بـ ... الخ » . هذا مثل تبسيطي وتقريبي ؛ ولا يخفى ان المقيم قد يكتشف في اثر معين امكانات ، او يدل على حالات جزئية ، لا نوعية كما في المثل السابق . قد يكون في رواية ما لا شاعر مختبىء او ضائع ، ولا كاتب قصة قصيرة، ولا ناقد، بل كاتب رواية من نوع آخر ، بشكل آخر ، او امكان ، او انطلاقة حقيقية لكن غير واعية ، لرواية تختلف عما هو معروف) .

وكيف يتوصل الناقد الى معرفة « الموجود المجهول » او «الموجود الاكثر اهمية » في الاثر ؟

اذا كان النقد لا يريد ان يقتصر على العرض والشرح ، فلا بد له ان « يعلق » ، ان يأخذ موقفا. والنقد التقييمي هو ايضا نقد موقف، سميناه «داخليا» ام سميناه منفتحا ومحبا ومسلحا بكل الاستعدادات الطيبة . والنقد التقييمي مهما كره الحكم فهو حكمي ، والا ظل في حدود عرض الاثر وشرحه ، باسلوب حل فنه التعميق محل التسطيح ، ومحاولة اعادة كرة الخلق محل التفرج من الواجهة عليه . ان اخراج القيمة بحد ذاته حكم ، لان المخرج لا يستطيع ان ينبش القيمة بالاستناد الى المطلق ولكن بالاستناد الى قيمة اخرى ، والى « اشياء » اخرى . ثم ما هو الاثر الفني ؟ انه ، في النتيجة ، جزء من تاريخ الآثار الفنية . كل اثر فني « يخضع ». كل اثر فني يدخل ضمن تاريخ الآثار الفنية (حتما يدخل ، سباقا ومغيرا ـ اي مضيفا ـ او متآلفا او رجعيا ، لا فرق من حيث انتماؤه الاخير) . وصلاحية الاثر لهذا الانتماء تخرجه من حيز المطلق وتجعله قابلا للمقارنة ، للمفاضلة ، للجدل ، تجعله في مهب التقييم، تخضعه لمجموع المفاهيم المعروفة والممكنة للقياس والفهم والاختبار والتقييم . الاثر نفسه ، اذاً ، يوحي تلقائيا للناقد بان يأخذ منه موقفا ، مهما حاول الناقد ان يتخلص من التحيز ويتنفض رافضا او متجنبا الانزلاق الى اصدار الحكم .

قد يقال : « هناك آثار تخطت عصرها »، ويقصد القائل من هذا ان هذه الآثار ،

بالتالي ، لم تخضع ، ولم توحِ للنقد المعاصر لها الوقوف منها والحكم فيها .

بديهي ان هذا اعتراض باطل، فمجرد تجاهل النقد، او جهله لها، ومجرد تراجعه عنها، موقف بذاته وحكم بذاته. فهو قد افادها من حيث تعمد او لم يتعمد طمسها، وقيمها حيث لم يفعل. وموقفه السلبي منها (الذي «افادها» عندما لم يقبلها اسوة بما كان يقبله من آثار «لم تتخط عصرها» ، فميزها، هكذا ، عنها ، حتى جاء تقدم الزمن يعيد البحث) افاده هو بدوره، اذ برهن على تقهقر هذا النقد وعلى مساوئه ، مما ولد نقدا جديدا يتلافى اخطاء النقد المتخلف ويحاول ان يبقى حذرا حيال التجديد وحيال كل اثر يظهر ، خشية ان تتكرر مسألة الاجحاف بحق المبدعين الذين ربما كانوا « متخطين عصرهم ». (حتى غدا هذا الحذر هاجسا ، والخشية عقدة ، والهرولة كلما صدر كتاب الى المناداة على « العبقري السابق لعصره » عادة مرضية لدى معظم النقاد) .

كل اثر يتطلب تقييما . كل تقييم هو حكم . كل محاولة لنقد اي اثر فني ، لتقييمه او للحكم عليه ، مهما تنزهت عن الاغراض وتغسلت من الآراء الجاهزة والمفاهيم السابقة ، هي محاولة سابقة .

من يستطيع ان يدخل في الاثر ويخرج منه ويرجع اصداءه، بتجرد كامل من كل شيء يعرفه ويريده ويستحسنه ، وبانفصال تام عن كل ما قد يعرض هذا الانفتاح على الاثر الى الخلل او الشرود او التعكير ، الى عرقلة اخلاصه ؟

من يستطيع ان يؤدي هذا الاخلاص للاثر ؟ اي ناقد ؟ بل اي قارىء ؟

قد يقال : المؤلف لم ينفصل كل هذا الانفصال حين ابتدع الاثر ، فلماذا تطلب من الناقد ان يكون اشد اخلاصا للاثر من اخلاص المؤلف له ؟

وقد يقال : من المستحيل بلوغ هذه الذروة في العري ، لانها ، منطقيا ، مستحيلة .

٣

هذا ما اريد ان اصل اليه .

ان كل ما بذله النقد ليتحاشى اخطاءه ويسد نواقصه لم ينجح في حمله الى حيث يريد ، اي الى « كل » الاخلاص . (الناقد هو « الآخر » ، ومهما اقترب الناقد من المؤلف يظل هذا « الآخر » بالنسبة اليه . وقد يظن شخص ما انه في وحدة مع شخص آخر تجعلهما شخصا واحدا لا اول فيه ولا آخر ، لكن اذ يسمع احد هذين الشخصين صوت وجدانه يتبين له ان في اعماقه حوارا بين اثنين ، بينه هو وبينه ايضا هو نفسه ، اي ان فيه ، هو ذاته ، شخصاً آخر ، فيعود الآخر « الخارجي » يكتسي هيئة الغريب ، هيئة «الغريب

الخارجي ») .

النقد، من حيث هو تابع للاثر، ومن حيث الاثر منتمٍ، عاجلاً او آجلاً، الى « تاريخ » الفن ، لا يمكنه ان يخلص الا في حدود النسب . ولقد كان النقد دائم الاخلاص في حدود النسب بصرف النظر عن كيفية اخلاصه ، ولم يحل هذا الاخلاص دون وقوع النقد في الاخطاء ، ودون ارتكابه الحماقات ، ودون ارتكابه الظلم ، ودون جهله ، ودون تخلفه ؛ كما لم يحل دون تأخر النقد دائما قرنا على الاقل عن ركب الخلق الطليعي،هذا الذي يسمونه «سابق عصره» وهو على الارجح ليس اكثر من عاكس ، حقيقي ومتطلع، لعصره بالذات.

(هناك نقاد تخطوا الاثر واشرفوا عليه بعلو او بعمق ابعد من اشراف المؤلف وعمقه. هناك نقاد خلقوا الاثر من جديد بشكل افضل. وهناك نقاد يتناولون التراب فيصبح ذهبا. هؤلاء يكلمون الاثر، او يقتبسونه، او يتخذون من انعكاساته فيهم منطلقات لخلق جديد؛ واذا كان النقد الذي يصغر امام الاثر يرتكب خطيئة التقصير، فان النقد الذي يتعملق او يتضخم ويقلع من الاثر اقلاعا يحجب الاثر ويصير فيه الاثر المنقود نقطة بداية لتأليف اثر آخر اكثر قابلية للنقد ولنقد ارفع شأناً — هذا النقد يرتكب خطيئة الانحراف . النقد الاول مقصر في اخلاصه ، اما النقد الآخر فمبالغ في خيانته للاثر) .

الاخلاص المطلق لا وجود له. اذاً ، ما الذي يعاب على النقد ؟ اليس كافيا منه اخلاصه الدرجي النسبي ؟

ثم: لا وجود للاخلاص المطلق في الخلق الفني، فكيف نسعى الى نقد مطلق الاخلاص؟ اليس في هذا ، عدا كونه مستحيلا ، تقديم للنقد على الاثر ؟

ما قلته حتى الآن اردت ان اشير خلاله الى هذه الاستحالة بالذات لابرهن ان كل قول بنقد غير متحيز ، وكل قول بنقد «يذهب من النص» ولا يتأثر بالعوامل الخارجية والسابقة والجاهزة ، هما قولان غير حقيقيين . كل نقد مهما كان هو نقد متحيز . كل نقد هو بطبيعته غير مخلص .

لا في المطلق فحسب ، بل في النسبة . للبرهان على ذلك ينبغي ان نستعير نموذجا فذا (لا حاجة الى القول انني في كلامي عن « الاثر الفني » اعني الاثر الذي يفرض نفسه اولا بهذه الصفة ، وثانياً بشكل يميزه ويقدمه عن بقية الآثار . وهذا الاثر ، رغم ندرته ، هو الذي يحدد مصير النقد). فلنأخذ شاعرا،وليكن معاصرا، ولنفترض انه الشاعر الفرنسي المعاصر والذي مات ، انتونان ارتو . لقد ذهب ارتو في اخلاصه مذهبا كاد ان يحقق به (ولعله حقق) الانفصال عن العالم وهو في قيد الحياة ، ودخل في جسده حيث الخارق والمجهول واللامنطقي ، وعبّر بلغة هي الخارق والمجهول واللامنطقي ، وراح يحاول ، بحثا

عن جذور الاخلاص ، ان يقبض الفكرة في انبثاقها البتول ، حيث لا مكتسبات تلطخها ولا صورة تغشيها ولا منطق يحرّفها ولا مؤثرات تشوهها ، وقبل ان يقوده اخلاصه الى الجنون والتفتت كان قد حقق بآثاره كثيرا مما اراد ، كما حقق بمثاله الانساني ما لم يحققه بآثاره .

هذا مثل في الاخلاص الحي ، المتطرف حتى الفناء .

مثل آخر في الاخلاص الحي ، المتطرف حتى التورط « المضر » : الشاعر المعاصر هنري ميشو . « الاخلاص ؟ » يتساءل ميشو . « انني اكتب من اجل ان يبطل ما هو حقيقي ، حقيقياً . السجن المفضوح لا يعود سجنا » . من اجل هذا تعاطى ميشو المخدر ، والتعزيم ، ومختلف ضروب «السفر الداخلي» ، ونقب في الاشياء الغريبة والقديمة والمجهولة ، وركب لنفسه لغة ، ويقال عن كل كتاب من كتبه انه يحير النقاد .

لم يستطع واحد من الذين نقدوا ارتو ان يخلص له بنسبة ما اخلص هو لنفسه ، رغم اننا ما زلنا في النسبي . لم يستطع واحد من نقاد ميشو ان يلتقطه ، ان يجاريه ، ان يخلص له بنسبة ما اخلص هو لنفسه ، لاثره . وكلما تقدمنا في عرض الاسماء عبر تاريخ الفن الحديث تكشف لنا عجز النقد ، وكلما قابلنا اثرا بالنقد الموضوع عنه تبين لنا ان الغربة بينهما امر شامل ، تتقلص او تتوسع لكنها لا تنعدم اطلاقا .

هذه المسافة بين الاثر والنقد ، ليس الناقد « محترف » النقد هو المسؤول الوحيد عنها ، بل كل ناقد ، كل قارىء ، كل « آخر » . صاحب الاثر نفسه احيانا . وقد ينبري شاعر لنقد قصيدة لشاعر ثانٍ ، ويقع في مثل ما يقع فيه الناقد « المحترف » . ان الغربة بين الاثر ونقده ليست من طبيعة مذهب نقدي معين او مجموعة من النقاد ، بل هي من طبيعة كل شيء « آخر » . لذلك المؤلف نفسه قد يشعر بفاصل يبعده عن أثره ، لان الاثر يتحول بعد تجسده الى كائن مستقل .

نعم . ليس هناك اخلاص مطلق في عمل الخلق ولا في نقد الخلق . وكذلك ليس من اخلاص نسبي متكافىء . صحيح ان النقد فن ثانوي ؛ ولكنه ، فوق ذلك ، حكميا مباشرا كان او خلال الفهم والتقييم ، ومهما بذل من حب ، وانفتاح ، وتجرد ، وموضوعية ، يظل ـ للاثر ـ غريبا ، خارجيا ، سلفا ، متحيزا ، متخلفا ، « خائنا » .

٤

يبدو انه حكم على الاثر ان يبقى في عزلته وعلى النقد ان يظل « منحرفا » . وحده الاثر الذي يخرج عن نطاق الفن (كالجنون المجسد بالتعبير ، كالاحلام المكتوبة بلغة

اوتوماتيكية صافية ، كالصمت « المكتوب » ، كالموت « المكتوب ») « ينجو » من عجز النقد، لانه ينجو من النقد. لكن هذه الآثار هل من وجود لها؟ هل من وجود لها خارج حدود الفن؟ كل ما جرب وكل ما صار على هذا الصعيد لم يلبث ان دخل الى حظيرة الفن، على الرغم من اصراره انه خارجه. الدادائية، السوريالية — يبدو انه حكم على كل محاولة متمردة فذة وصادقة وحاسمة للخروج من حظيرة الفن، بالعودة الى الانصباب فيها، والاقامة في متناول النقد وتحت طائلته . لكن، لنتساءل : اليس في « انحراف » النقد ، اخيرا ، خدمة للفنان المؤلف ؟ اليس في « المسافة » و « البعد » اللذين اشرت اليهما ، ما يوفر للفنان الجو المناسب لمزيد من الاخلاص في عمل الخلق ؟ اليس في عجز النقد عن اكتشاف الاثر اكتشافا كاملا والاخلاص له بنسبة اخلاص المؤلف ، ما يفسح للمؤلف في مجال المثابرة بانسجام ودونما خلل او « وعي » مؤذٍ ؟ بعبارة اخرى ، أليس في التكافؤ بين اخلاص الناقد واخلاص المؤلف ، وبين تجربة الاول وتجربة الثاني ، وبين عطاء الاول واستعداد الثاني لتقبل العطاء واعادة اختباره ، ما يتلف المؤلف ؟

يقول ريكه ان « من اقسى امتحانات المبدع انه ينبغي له البقاء في جهل من افضل مواهبه ، ان لا يشعر بها مجرد الشعور ، والا تعرض الى افقادها صفاءها ، وعذريتها » . والنقد ، ما هو عمله ؟ انه ، حتى في حدود انحرافه وتخلفه ، ما يزال يمارس ، بقليل او كثير، ايقاظ المبدع على مفاتيحه. فهل نطلب منه ان يمضي في ممارسته هذه اشواطا اخرى؟

حقا، كل هذا عبث. لا يمكن ان نلغي النقد، لكن من حقنا ان نتساءل لمَ النقد «هكذا» من حقنا ان نقف من النقد موقفه ، فنكون بالنسبة اليه غرباء ، خارجيين ، مُسبَقين ، متحيزين ، متخلفين ، و « خونة » .

كما لا بد ان يكون هناك بالنسبة اليه شيء تابع له ، ناجم عنه، «ثانوي» .